الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

الكلية :الآداب واللغات

القسم: اللغة والآداب العربي

عنوان الليسانس: الأدب العربي

الشعبة: دراسات أدبية

التخصص : أدب عربي

السنة : الثالثة

السداسي :الخامس

المادة :جماليات السرد العربي القديم

محاضرات في مقياس :

جماليات السرد العربي القديم

الأستاذة: دربالي وهيبة

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

مقياس جماليات السرد العربي القديم

نتطرق في المحاضرات التالية لدراسة النصوص السردية العربية القديمة، التي مثلت الوجه المشرق للأدب العربي القديم،ووجدنا أثرها الجمالي في الآداب العالمية،وسنحاول الكشف عن الجوانب الجمالية والفنية في السرد العربي القديم.

عنوان المحاضرة الأولى – السرد العربي القديم "النشأة والتطور"

إن مجال السرد هو قديم وعريق في تراثنا الأدبي، ومارس العربي قديمًا أشكالًا عديدة من السرد في صورة أولية بسيطة،ولكن إذا ماجئنا لمصطلح السرد في مفهومه الاصطلاحي،فهو حديث الاستعمال، وعادت بدايات تشكل السرد العربي إلى العصر الجاهلي،وتطور مفهومه عبر العصور الأدبية، وفي المستهل سنتعرف على مفهوم مصطلح السرد.

أولًا – تحديد مفاهيم بعض المصطلحات السردية :

نحاول تحديد مفهوم بعض المصطلحات التي لها صلة مباشرة بموضوعنا، ومنها: السرد والجمالية ، ونبدأ بمصطلح السرد بتحديد مفهومه اللغوي ثم الاصطلاحي :

1- مفهوم مصطلح السرد narration :

في تعريف مصطلح السرد نبدأ بمفهومه اللغوي أولًا ثم نعرض مفهومه في اصطلاح النقد الأدبي الحديث .

أ-السرد في اللغة:

ورد مفهوم السرد عند ابن منظور في قوله:« السَّرْدُ في اللغة تَقْدِمَةُ شيء إلى شيء تَأْتي به مُتَّسِقًا بعضُه في أَثر بعض متتابعًا، وسرد الحديث ونحوه يسردهُ سَرْدًا إذا تابعه ، وفلان يَسْرُد الحديث سردًا إذا كان جَيِّد السياق لَهُ».

نجد أنَّ معنى السرد في المفهوم اللغوي هو التتالي والمتابعة في الكلام ، وورد كذلك في الاستعمال اللغوي: «سَرد سّرْدًا وسِرادًا الجلد: خّرزَهُ، الشيء: ثقبه الدِرع: نسَّجها، وسرد الدُّر؛ أي التتابع في النظام...وسرد الحديث أو القراءة: أجاد سياقهما، وسرد الكتاب: وقرأه : بسرعة».

ومنه فالمفاهيم اللغوية للسرد تنحصر في الدلالات التالية:الترتيب والتتابع والاتساق والتسلسل في إلقاء الكلام وعرضه في صورة جيدة ومنتظمة.

ب- السرد في الاصطلاح : نتناول المفهوم الاصطلاحي للسرد في النقديين الغربي والعربي :

ب-1/ مفهوم مصطلح السرد في النقد الأدبي الغربي الحديث :

وفي تحديد مفهوم مصطلح السرد في النقد الغربي الحديث نجد أن «مصطلح السرد narration يُحدد على أنه فعل القص،ونتيجة له،وهو عملية الإخبار المكتوبة أو الشفوية للوقائع والأحداث الواقعية أو المتخيلة ».

ومنه فالسرد هو حكاية أحداث على سبيل المشافهة أو الكتابة ،وقد تكون واقعية حقيقة أو متخيلة من طرف السارد «والسرد هو إجراء تعبيري يتمثل في استخدام الفعل بصيغة الحاضر الإخباري ».

شمل هذا التعريف للسرد على مفهوم عرض الأديب للأحداث الواقعية أو المتخيلة، والتعبير عنها بصيغة حاضر السرد،وفي سياق متصل عرَّف الناقد جيرار جينيت السرد في قوله :«السرد هو مجموعة الأحداث المروية من الحكاية ؛ أي الخطاب الشفوي أو المكتوب الذي يرويه».

نلاحظ أن جيرار جنيت جمع في مفهومه للسرد بين الخطابات الشفوية و المكتوبة على حد سواء، ويُعرّف كذلك السرد narration على أنه «خطاب يقدم حدثًا أو أكثر، ويتم التمييز تقليديًا بينه وبين الوصف description والتعليقcommentary سوى أنه كثيرًا مايتم دمجهما فيه».

لقد أشاد بعض النقاد الغربيين بضرورة التمييز بين السرد وإجراء الوصف والتعليق ،ونجد أنه «من أجل التمييز بين السرد ومجرد الوصف واقعة ؛ فإن بعض السرديين "لابوف ،برنس ريمون، كينان " قد عرفوه بأنه رواية حدثين خياليين أو روائيين على الأقل...وقرروا أيضًا بأن السرد يجب أن يتضمن موضوعًا متصلًا ، ويشكل كلًا متكاملًا ».

ومنه فالسرد يعني رواية خطاب شفوي أو مكتوب أو رواية الوقائع والأحداث الخيالية أو الواقعية في أسلوب منظم «والسرد أو القصّ هو فعل يقوم به الراوي الذي يُنتج القصّة ،وهو فعل حقيقي أو خيالي ثمرته الخطاب .

ومنه فالسرد عملية إنتاج يمثّل فيها الراوي دور المُنتج،والمروي له دور المستهلك ،والخطاب دور السِلعة المنتجَة».

نلاحظ أن المفاهيم الغربية للسرد جمعت بين ماهو شفهي أو كتابي، وأدبي وغير أدبي، وماهو واقعي أو خيالي في الخطاب المسرود،وركزت على طريقة التعبير في السرد ،وبذلك يكون السرد عملية منظمة في الإخبار بالوقائع والأحداث من طرف السارد.

ب-2/ مفهوم مصطلح السرد في النقد الأدبي العربي الحديث :

وردت مفاهيم كثيرة للسرد عند النقاد العرب،ومنها ماذكره محمد صادق الرافعي في قوله: « السرد هو متابعة الكلام على الولاء والاستعجال به، ويراد به جودة سياق الحديث».

ركز محمد صادق الرافعي في تعريفه للسرد على سرعة الإخبار ، وحسن عرض سياق الكلام، وفي سياق متصل عرَّف الناقد عبد المالك مرتاض السرد بقوله:«السرد هو تتابع الماضي على وتيرة واحدة».

نرى بوجود توافق بين محمد صادق الرافعي وعبد المالك مرتاض في ذكر خاصية تتابع سرد الكلام، وأما الناقد سعيد يقطين فيُعرف السرد بأنه«نقل الفعل القابل للتداول سواء أكان هذا الفعل واقعيًا أم تخيلًا ،وسواء تتداول مشافهة أم كتابة».

السرد هنا هو فعل متداول، ولايهم سعيد يقطين إن كان نوع الفعل واقعي تخيلي أو خاصية عرضه شفهية أو مكتوبة ويرى سعيد يقطين بأن السرد فعل لاحدود له يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء أكانت أدبية أم غير الأدبية يبدعه الإنسان أينما وُجد، وحيثما كان».

نلاحظ أن مفهوم سعيد يقطين لمصطلح السرد عام شمل كل الخطابات الأدبية وغير الأدبية ،والخطابات الشفاهية والكتابية والحقيقة والمتخيلة،ولقد اختار الباحث ضياء الكعبي مصطلح "السرد العربي القديم" من بين مصطلحات كثيرة (سرد،سردية المسردية،القصيات..الخ)للدلالة على القصص العربي القديم،وحسبما مايرى-ضياء الكعبي-بأنه يعد هذا المصطلح مفهومًاجامعًا يتخذ بعد الجنس،وتتدرج في إطاره التجليات السردية مثل:الأخبار والأسمار والحكايات والقصص»

يتحدد مفهوم مصطلح "السرد العربي القديم" للدلالة على مختلف الأشكال السردية ،التي ظهرت في تراثنا العربي من فنون قصصية وأخبار ونوادر...الخ.

ومنه إذن فالتعاريف المقدمة للسرد ركزت على طريقة عرض الكلام،والمحافظة على مبدأ التقنية المرتبطة بالجودة الفنية في تأليف الكلام وصوغه،ولاحظنا وجود توافق بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي في السرد في مفهوم صوغ الكلام في طريقة متتالية ومنتظمة ومتسقة،وحصل تقارب كبير بين المفاهيم الغربية والعربية لمفهوم السرد؛ لأن دلالة المصطلح في الأصل هي غربية، وأما دلالته العربية فمصطلح السرد يُقصد به الإشارة إلى المرويات والحكايات العربية القديمة ذات الطابع السردي .

2- مفهوم مصطلح الجمالية Esthétisme :

إنَّ الجمالية هي مصطلح نقدي حديث،ونقصد بالجمالية تلك « النزعة المثالية التي تبحثُ في الخلفيات التشكيلية للإنتاج الأدبي والفني ، وترمي إلى الاهتمام بالمقاييس الجمالية بغض النظر عن الجوانب الأخلاقية».

مماهو معلوم أنَّ مصطلح الجمالية ارتبط بالجوانب الفنية المتصلة بالشكل الفني للنصوص السردية، ويتجاهل المضامين الأخلاقية والدينية،والجمالية هي بحث في طرق تصوير الجمال الفني في النصوص السردية وأثرها في المتلقين.

رصد النقاد العرب في التراث الأدبي العربي شيوع مصطلحات من قبيل:الحكاية والقصة بعد أن زحزح مصطلح الخبر الحديث،وكذلك النادرة والمثل...الخ، وهذه المصطلحات متحركة ومتغيرة المفهوم بحسب الشروط التاريخية والاجتماعية التي أحاطت بالسرد العربي القديم».

ومنه إذن فقد تعرضنا لمفهوم المصطلحين "السرد والجمالية" لما لهما صلة مباشرة بمجال جماليات السرد العربي القديم ولكونهما من المصطلحات المفاتيح لهذا المجال ، ولاحظنا أن مصطلح السرد اكتسب خصوصية عربية إسلامية في تراثنا الأدبي العربي .

ثانيًا – نشأة السرد العربي وتطوره :

مرَّ السرد العربي بمراحل تطوَّر هامة تغيّر فيها من حيث مفهومه وأشكاله ، وسنأتي على ذكرها :

1-السرد العربي في العصر الجاهلي:

في البداية نشير إلى أنَّ السرد العربي في العصر الجاهلي كان « شفويًا على ألسنة الرواة ، ولقد تعرض إلى تحريف وتغيير في معظم المرويات السردية، وإذا كانت القصة الجاهلية فكرة وأحداث وشخصيات؛ فإن السرد فيها كان كتابيًا متأخرًا حاول المحافظة على الروح الجاهلية، وكان للاحتكاك العرب بالقبائل المجاورة (الفرس،الروم) تأثير في أساطيرهم وحكايتهم التي شغلت مساحات واسعة من عالم السردية العربية،وكانت ملتقى لثقافات متعددة (كالوثنية والمجوسية والمسيحية)».

ساد الطابع الشفوي للمرويات الحكائية في السرد الجاهلي،فكانت كل قصص العرب وحكايتهم تتداول مشافهة،وبفعل التفاعل بين العرب والقبائل المجاورة ، وكان له أثّرٌ في صياغة قصصهم ، وكذلك في العصر الجاهلي« وكثيرًا ماكان يلجأ الشاعر إلى السرد عندما يتذكر أحبته كما فعل امرئ القيس حينما يتذكر».

برزت قصائد شعرية لشعراء العرب (الشعراء الصعاليك) سردت الحكايات العاطفية أو قصص البطولية لشعرائها وسجلت الأحداث التاريخية أو الاجتماعية بأسلوب سردي ممتع وشيق ،وظهرت العديد من القصائد العربية في طابع قصصي، متأثرة بالحياة الجاهلية الوثنية.

2-السرد العربي في العصر الإسلامي :

في البداية نشير إلى أنه في العهد الإسلامي حدثت نقلة نوعية في أسلوب السرد العربي، فتأثر القاص العربي بتعاليم الإسلام، فظهر لون خاص عُرف بالقصص المسجدي « فشكل فضاء المسجد وفضاء المنبر منظورًا عقائديًا يتحكم في تشكيل المرويات السردية وفقًا لأوامر السلطة الدينية ونواهيها».

ومنه فقد ظهر لون جديد في السرد العربي القديم،وترسخ في تراثنا العربي عُرف بالقصص المسجدي الإسلامي وتأثر القاص العربي بمنهج الدعوة الإسلامية، فظهرت فئة من القصاصين الملتزمين، وتركوا المرويات الوثنية والأسطورية التي ظهرت في العصر الجاهلي ،ولقد ارتبط السرد بجهود الرواة،وانتقل فن الرواية نقلة نوعية في العصر الإسلامي «وتنقطع

سلسلة الرواة عند القرن الأول للهجرة،وقد تصل إلى زمن الدعوة الإسلامية ليس أكثر ، ففن الرواية فن إسلامي بدأ بعلم الحديث النبوي الشريف، وبدأ القص الإسلامي في الزمن النبوة، وكان القصاص يثيرون فيهم الحماسة الدينية ».

أثارت القصص الإسلامية الحماسة الدينية في نفوس الناس، وظهر لون جديد من السرد متأثر بفن الرواية الإسلامي وإن رواية الحديث النبوي وأخبار الرسول (ﷺ) شكلت البداية الفعلية لما يعرف بالقصص الإسلامي، الذي هو مختلف في توجهاته وغاياته عن القصص الجاهلي.

3-السرد العربي في العصر الأموي :

مماهو معلوم أن القصص العربي القديم بدأ وثنيًا متأثرًا بأساطير وخرافات الشعوب الأولى في العصر الجاهلي «ثم تطور دينيًا مستمدًا من القرآن الكريم وأحاديث الرسول(ﷺ) وسيرته ، لأهداف دينية دعوية خالصة، ثم خرج إلى أغراض سياسية أيام الفتنة بين معاوية وعلي، وثم تطوَّر في زمن معاوية إلى قصص تاريخي وأسطوري يتناول أخبار الأمم السالفة...إضافة إلى ما استمر من أشكال قصصية قديمة ».

إن السرد في العصرين الإسلامي والأموي ليس على شاكلة واحدة، فهو متنوع إلى سرد ديني أو تاريخي أو أسطوري ونجد أن القصص العربي «في زمن معاوية أصبح له شأن كبير، واقتران القصُّ بالشعر ، وهو الشكل الذي ظل سائدًا في القصص العربي طوال قرون من الزمن».

حصل تداخل بين الشعر والنثر في مجال القصص العربي القديم ، وهو سمة ميزت بعض النصوص السردية القديمة وظهر في العصر الأموي لون جديد من القصص ذا طبيعة تاريخية تماشيًا مع غاية السارد العربي في تدوين الأخبار .

4-السرد العربي في العصر العباسي :

شهد السرد العربي في العصر العباسي تطورًا ملحوظًا « فإذا كان العلماء قد صاغوا المواد القصصية بأسلوبهم محافظين -بعض الشيء - على نكهتها الشفوية ؛ فإن هناك قصصًا شفويًا خالصًا ظل يُتداول في كل مكان على أفواه القصاص ،الذين علا شأنهم في العصر العباسي الأول ، وقد لمع عدد من القصاص المشهورين في هذا العصر، منهم : عبد الله بن عرادة وموسى الأسواري والقاسم بن يحي الضرير».

حصل تدوين القصص العربية في العصر العباسي مع بقاء الطابع الشفاهي لتلك القصص،وتحدث الجاحظ عن القصاصين في كتابه "البيان والتبيين"، وقد أفرد لهم بابًا ترجم لهم فيه، ومما أورده الجاحظ في ذكر القُصاص في قوله :«ومن كبار القصاصين ثم من هذيل :مُسلم بن جندب ،وكان قاصّ مسجد النبيﷺ بالمدينة ،وكان إمامهم وقارئهم »

انتشر القصص في شبه الجزيرة العربية ،وخصوصًا أن البيئة البدوية العربية ساعدت على ذلك ،وفي العصر العباسي حدث تدوين السيرة النبوية على نطاق واسع « وتعد السيرة النبوية أول عمل تأسيسي لفن السير وقد قام أبو هشام بتهذيب السيرة النبوية؛لأن السيرة النبوية،التي أخذها عن ابن إسحاق، وبغض النظر عن صحة مروياتها فيها،وتعد السيرة النبوية أهم نص سردي أرَّخ لحياة الرسول محمد (ﷺ) وأثر في مسار تطور فن السير العربية» .

وكما بدأ تدوين المغازي والأخبار وسير التاريخ..الخ ، ومن المؤلفات السردية الهامة فيه نذكر:الفهرست لابن النديم والأغاني لأبي فرج الأصفهاني،و"البيان والتبيين" للجاحظ،ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني والإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، وهنا لايمكن إغفال جهود المترجمين، ويأتي على رأسهم ابن المقفع في ترجمته لكتاب كليلة ودمنة،وهي قصص على لسان الحيوان، وهو مايُعد من أجّل أعماله» .

تجدر الإشارة إلى أن السرد العربي في العصر العباسي تأثر بالأحداث السياسية والفكرية والاجتماعية في المجتمع العباسي

واستمد الفن القصصي العربي الكثير من الألوان السردية والسمات الفنية نتيجة للعوامل الثقافية والدينية والتاريخية،التي أثرت في السارد العربي بشكل مباشر« ويتيح تنوع نصوص تراث السرد العربي وتعدده إمكانات شتى لمساءلة هذا التراث،واستكناه ملامحه وقوانينه انطلاقًا من الأنواع السردية، التي برزت في إطار التفاعل السائد بين كل مكونات الثقافة العربية الإسلامية، وتمثل هذه الأنواع السردية نصًا منفتحًا على حقول معرفية عديدة إذ تشمل قصص الحيوان والقصة العجائبية، والمقامات، والسير الشعبية، وأيام العرب، والقصص الإسلامي القرآني المسجدي ، وقصص الأنبياء... الخ».

حصل نضج في مسار السرد العربي القديم، فظهرت فيه فنون وأشكال سردية عديدة: كالقصص بمختلف أنواعه والمقامات، والسير والملاحم ..الخ اصطبغت بسمات البيئة العربية الإسلامية .

5-السرد العربي في عصر الجمود :

تراجع تطور السرد العربي في عصر الانحطاط، فظهر الضعف في نصوص سردية، ومع أن عصر الدول المتتابعة حفل بمجموعة من«السير الشعبية مثل الظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن، وظهرت قصص أخرى،وكانت المقامة العامية التي تقلد المقامة الفصحى من فنون النثر الشعبي الشائعة،واتخذت وسيلة للتعبير عن الموضوعات الخفيفة الفكاهية والساخرة واتخذت وسيلة للهزل والضحاك ».

اتجه الأدباء في هذا عصر الجمود نحو المواضيع السطحية، وكانت غاياتهم هي الإمتاع ، ومع ظهور سمة التقليد والمحاكاة في سردهم،وعلى سبيل الذكر «وُضعت المقامة أصلًا في العصر العباسي لأغراض دينية ،فارتقت وتنوعت في عصرها ،ولكنها تراجعت في عصر الانحدار والعصر العثماني عما كانت عليه من مكانة عالية ،وإن كان أدباء العصر العثماني قد كتبوا مقامات كثيرة ومتنوعة حافظ بعضها على الشكل القديم للمقامة أسلوبًا وهدفًا».

ومنه فالمقامات في العصر العثماني هي تقليد عام للمقامات، التي ظهرت في العصر العباسي، ولاتعبر عن إبداع مؤلفيها.

تجدر الإشارة إلى أنَّ عصر الجمود لايعني ضعف الكتابة في كل فنون السرد العربي القديم ، فهناك استثناء ، ففي هذا العصر انتشر تدوين الرحلات، وظهرت كتب الرحلات على نطاق واسع ،ومن أبرزها: «مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي..ورحلة ابن بطوطة المسماة "بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"».

ومنه نقول بأنه إذا كان العصر العباسي هو عصر تطور وازدهار للسرد العربي القديم؛ فإن عصر الجمود على خلاف ذلك ؛ إذ شهد تراجعًا في بعض الفنون السردية كالمقامة والقصة والحكاية .

وفي الأخير نرى بأن السرد العربي القديم أصيل وعريق نشأ وتطور في إطار عوامل ثقافية واجتماعية ودينية خاصة صبغته بطابع عربي إسلامي، ومكنته من التربع على عرش الآداب العالمية .